عالم الاحياء

لم يكد منتطف دسمبر الماضي ينتشر حتى كتب جماعة من علماء المسيحيين والمسلمين يشكروننا على المقالة التي موضوعها « آياته في خلقه » . فقد نقلها السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ونقل ايضاً ما ذكرناه بعدها تعليقاً على رسالة لاحد الاشتراكيين وقال انهُ فعل ذلك تذكيراً للعالم وعبرةً للملحدين في الكفر الذين يقولون لو كان اصل الدين حقاً لما انكر وجود الله تعالى العلماء العارفون بنظام الكائنات »

وكتب الينا رجل من ايمة الدين في العراق يقول « ان مقالة (آياته في خلقه) من ابدع وابلغ ما كتب في موضوع وجود الله وقد احدثت دوياً عظيماً في العراق واندية الادباء وطالعها كثيرون بل فضلاء لا يعدون لما فيها من محكم البراهين وسديد الآراء ورصين التعبير عسى المقتطف ان يتحفنا بما هو من بابها شيئاً كثيراً لان الدين مما تحتاج اليهِ النفس و يطمئن اليهِ الخاطر ويأتي بالاصلاح ظاهراً و باطناً »

والظاهر ان بعض رجال الدين يزعم اننا من المعطلين او الملحدين لاننا لا نكثر من نشر المقالات الدينية او لاننا لا نبدأ كل مقالاتنا بالبسملة والحمدلة ولا نختمها بقولنا والله اعلم او وفوق كل ذي علم عليم او نحو ذلك من العبارات التي صقلتها الالسن وقلما يخطها قلم وصاحبهُ شاعر بمعناها

فلو كنا من البوذيين نؤلهُ بوذة ونمجدهُ في كل مقالة نكتبها وتذكر كل اله سواه أكنا نحسب عند اولئك الفضلاء من المتدينين المتعبدين لا من الملحدين المعطلين . ولماذا يُطلب ممن يكتب في الصرف والنحو والحساب والجغرافيا والمنطق والكيمياء والحيوان والنبات ونحو ذلك من المواضيع ان يمزج المباحث العلمية بالمباحث الدينية او يتوكأ على عبارات دينية تقال غالباً جرياً على العادة من غير ان يقصد معناها بل اننا لا نرى ارتباطاً التزامياً بين التدين الحقيقي ومعرفة اصول الدين او المجاهرة بها فقد يكون الانسان من اعلم الناس باصول دينهِ وهو مع ذلك فاسد السيرة والسريرة لا تأتمنهُ على شيء وقد يكون غاية في الصدق والامانة وكرم الاخلاق وهو يجهل كل اصول الدين او لا يتظاهر بمعرفة شيء منها

ومع ذلك فما قالهُ الفاضل العراقي حقيقة نعتقدها ونجاهر بها وهو « ان الدين مما تحتاج اليهِ النفس و يطمئن اليهِ الخاطر و يأتي بالاصلاح ظاهراً و باطناً » . واقامة الادلة على وجود الخالق ونفع التدين من المباحث الفلسفية والاجتماعية التي يُعنى بها المقتطف كما يعنى بنشرها

من المباحث المفيدة ولذلك نتوخاها مرة بعد اخرى كلما حدث ما يلفتنا اليها ولكننا لا نكثر منها لاننا قلما نرى احداً ينكر وجود الخالق او يجحد فائدة الدين فيكون اثباتنا لها بالادلة من باب تحصيل الحاصل ولكن اذا كتب احد منكراً فاننا لا نتأخر عن اقامة ادلّة الاثبات كما حدث في دسمبر الماضي

ومن غريب الاتفاق اننا لما كنا نكتب المقالة التي موضوعها «آياتهُ في خلقهِ» كان شيخ علماء الطبيعة في هذا العصر وهو الدكتور الفرد ولس شريك دارون في مذهب النشوء يطبع كتاباً في موضوع يماثل هذا الموضوع سماهُ عالم الاحياء فقد قرأنا في الجزء الاخير من مجلة المجلاّت الانكليزية الذي وصلنا في اواخر يناير كلاماً عن هذا الكتاب للمستر ستد محرر تلك المجلّة وها نحن موردون خلاصتهُ الى ان تصلنا نسخة من الكتاب نفسهِ

قال المستر ستد «لو قلت لرجال الدين منذ اربعين سنة ان شريك دارون في اكتشاف ناموس النشوء يؤلف كتاباً يقيم فيهِ اقطع الادلة واصرحها على الوهية الخالق وازليتهِ وعنايتهِ التامة بمخلوقاتهِ لمزأوا بك وقالوا هل يخرج من الناصرة شيءٌ صالح . ولكن خرج المسيح من الناصرة . وصدر من عقل ولس كتاب «عالم الحياة» وما من كتاب ديني ادلةً اقطع من ادلة هذا الكتاب فهو وحي يرحب بهِ نوع الانسان اعظم ترحيب . فقد ظنَّ كثيرون من الذين اعتنقوا مذهب النشوء ان الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح نفيا الوحي واثبتا التعطيل واقنعا الناس بان الدنيا شرٌّ من جهنم لانهم يعذبون فيها صالحهم وطالحهم على حدٍّ سوى واما جهنم فلا يعذَّب فيها الاَّ الاشرار . فقد قال هكسلي اننا لو كنا نسمع كل الاصوات لسمعنا من انين المخلوقات ما لا يقاس بهِ انين المعذبين الذي سمعهُ دنتي في جهنم وكأنَّ المخلوقات كلها تنفي بلسان واحد قول من يقول ان الخالق برٌّ رحيم فاما انهُ غير موجود او انهُ خلق العالم داراً للعذاب والشقاء»

هذه خلاصة اقوال العلماء الطبيعيين في القرن التاسع عشر على ما قالهُ ستد اما نحن فلم نرَ انهم ذهبوا هذا المذهب او قالوا هذا القول . نعم انهم لم ينكروا وجود الالم وقد كان دارون يشير اليهِ ولا يرى سبيلاً للتوفيق بينهُ وبين رأفة الخالق ولكن كثيرون منهم صرَّحوا بان الحيوانات ولاسيما الدنيا منها قلَّ تألم او لا تألم مطلقاً وقد نشرنا نحن مقالة في هذا الموضوع في مقتطف نوفمبر سنة ١٨٨٩ اي منذ اكثر من احدى وعشرين سنة قلنا فيها ما نصهُ

هل يتألم الحيوان كما يتألم الانسان مسألة يسألها الصغار ويرتاب في حلها الكبار . فاننا كل يوم وكل ساعة ندوس الحشرات من النمل والدود وما اشبه فتنكسر عظامها وتتقطع اوصالها

وتمزق ابدانها ونحن غافلون وعن آلامها لاهون . ونصب الشراك للطيور ورميها بالبنادق فيكسر الخردق (الرش) اجنحتها ويمزق ابدانها ونحن نتهلل بذلك كأنهُ من اطيب المسرات . وتلقي الشباك للاسماك ونرفعها من الماء الى الهواء فتموت اختناقاً وان لم تمت سريعاً جلدنا بها الصخر او القيناها في النار او طرحناها في الزيت الغالي ونحن لا ننظر الاَّ الى لذة الصيد واكل السمك الطري . فهل نقول كما نقول طائفة من حامية الحيوان فوتل الانسان ما اشرسهُ . ولكنَّ طوائف الحيوان كلها تجري هذا المجرى فالباشق يخطف العصفور ويمزق بدنهُ تمزيقاً قبلما تزهق روحهُ . والعصفور يلتقط في نهاره مئات من الذباب والديدان ويمزق ابدانها ليتغذى بها . والاسد يفترس الثور وينهش لحمهُ رويداً رويداً الى ان تفارقهُ الحياة . والثور يأكل العشب ولا يعفو عمَّا عليهِ من الديدان والحشرات . والسمك تأكل كبارهُ صغارهُ فلا ينجو من المليون واحد . والخليقة كلها يقتات بعضها ببعض واذا كانت تتألم كما يتألم الانسان فقد خلقها الله سبحانهُ للوجع والالم تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وان الحكيم ليرى في حكمة الله وجودتهِ دليلاً على وجوب نفي الالم عن الحيوانات ولاسيما الدنيا منها ولكننا لا نطرق هذا الموضوع من باب ديني نظري بل من باب علمي عملي ولذلك نقول

اثبتنا في الجزء الماضي في فقرة صغيرة بين الاخبار ان الزنوج لا يتألمون كما يتألم البيض وان ذلك معروف بالتواتر ومثبت بالامتحان اذ قد ثبت ان شعور اعصابهم اقل من شعور اعصاب البيض . وكل يوم نرى دليلاً جديداً على ان الناس يتفاوتون في شعورهم بالالم فجميع الاطباء الذين سألناهم في هذا الموضوع متفقون على ان الفلاَّح اقل شعوراً بالالم تحت العمليات الجراحية من التاجر وابن المدينة . وبالامس كنا نفكر في هذا الموضوع واذا بالخادمة تناقل عن آلة قاطعة فقطعت خنصرهُ فاتانا به يريدنا اياهُ وظاهر الامر انها تألمت من رؤيتهِ اكثر مما تألم هو من قطعهِ

وقد قسم الدكتور كلياد الناس الى قسمين اصحاب البنية العصبية واصحاب البنية العضلية فمن القسم الاول العلماء ورجال العقول والاقلام ومن القسم الثاني العملة والفلاَّحون . وليس بين هذين القسمين حاجز حصين بل هما ممتزجان لا يعلم الفاصل بينهما ولكن الطرفين البعيدين منهما لا يشتبه احدهما بالآخر فترى في المدينة الواحدة رجلاً يحتمل اشد العمليات الجراحية غير مظهر شيئاً من التألم وآخر لا يحتمل اخفها ما لم تزهق روحهُ من شدة الألم . وكم من مرة يتألم الواحد من حذاء ضيق المنَّا لا يطاق فاين ذلك مما رواهُ مكاتب جريدة البكتاتر عن اهالي زيلندا الجديدة وهو انهُ حينما أُدخلت الاحذية الضيقة الى جزيرتهم ورأوا ان اقدامهم

لا تدخل فيها كانوا يقطعون اصبعاً او اصبعين من القدم لكي يسهل دخولها في الحذاء

والانسان الواحد قد تمرُّ عليهِ ساعات يتألم فيها عمَّا لا يتألم منهُ في وقت آخر فاذا انشغل بالهُ بمسئلة معضلة او احتقن دماغهُ لمرض او لسبب آخر فقد يتألم من صوت وقع الخطى كما يتألم من وقع السهام . وقد تمرُّ عليهِ ساعات أُخرى يفارقهُ فيها الألم مع توتُّر أعصابهِ فينحر الفخاراً كأنهُ يأكل المآكل الطيبة ويتقلَّى جسمهُ على نار الاضطهاد وهو يسبِّح ويرنم

فان كان البشر متفاوتين في الشعور بالالم وهم من جبلة واحدة ودم واحد وان كان الانسان الواحد يختلف شعورهُ بالالم باختلاف الاحوال فعلى مَ لا يكون البون شاسعاً بين الانسان وبقية انواع الحيوان

وبعدُ فان مركز الالم في الدماغ والاعصابُ تنقل التأثير الذي يحدث في البدن اليهِ . فاذا انقطعت الاعصاب الموصلة بين يدي ودماغي ومسكت النار بيدي لم اشعر بشيءٍ من الالم لان تأثير النار الذي نسميهِ المَّا لا يصل الى الدماغ . وكذا اذا اصابت الحبل الشوكيَّ آفة فتعطَّل فعلهُ لم نعد نشعر بألم يقع في الاعضاء التي اعصابها من الجزء المتعطل وتبقى تلك الاعضاء حيَّة مثل بقية اعضاء البدن . ثم ان مركز الشعور غير شامل لجميع الدماغ بل منحصر في بقعة منهُ لانهُ قد يحدث كثيراً ان ينزع جانب كبير من الدماغ في العمليات الجراحية ولا يرافق ذلك شيءٌ من الألم . وقد تتولَّد في الدماغ خرَّاجة كبيرة فلا يشعر بها وهي لو تولَّدت في عضو آخر من اعضائهِ لاحرمتهُ لذيذ النوم بألمها الشديد . وكل ذلك دليل على ان عدم وجود مركز الألم في الحيوانات الدنيا ليس بالامر المستحيل ولو كان بناء اعصابها مثل بناء اعصاب الانسان بل لا يبعد ان يكون الألم قوة ارتقت في الانسان ولم تزل ضعيفة جدًّا في بقية انواع الحيوان ولم ترتقِ ارتقاءه يذكر الاَّ في ما ساكنهُ منها كالكلب والفرس

واوَّلُ ما يُعترض بهِ على من ينفي تألُّم الحيوان صراخ الحيوانات اذا اصابها ما نظن انهُ يؤلمها فالكلب اذا رميتهُ بحجر فقد يصرخ صراخاً تشقق لهُ الاكباد وكذا اذا نشبت رجلهُ في فخ ولكنك اذا امعنت النظر رأيت ان الكلاب لا تصرخ كلها على حدٍّ سوى بل منها ما لا يصرخ ابداً والذي يصرخ منها قد يصرخ ولو لم يصبهُ الحجر بل قد يصرخ من مجرَّد رفعك الحجر بيدك . واذا نشبت رجلهُ في فخ فقد لا يصرخ ما لم يرَ احداً مقبلاً نحوهُ فاذا ولَّيت منهُ من حيث لا يراك لم يصرخ فلا بدَّ من انهُ صرخ في الحالين من الخوف لا من الألم وحدهُ . وهذا شأن الارانب والضفادع وغيرها من الحيوانات التي تصوت فانها تصرخ من الخوف اكثر مما تصرخ من الألم . أتبع الضفدع بثعبان فانها تصرخ صراخ الالم ولكن اقطع

ساقها فقلما تسمع منها صوتاً

والالم يمنع من عمل بعض الاعمال فاذا رأيت رجلاً تُقطع يدهُ وهو يضحك ويمزح حكمت للحال انهُ غير متألم من قطع يده وهذا شأن كثير من الحيوانات فالكلب تكسر رجلهُ فيحملها ويقف امامك يبصبص بذنبهِ بعد ان تزول سورة الخوف كأنهُ لم يصبهُ شيء · والفرس تكسر يدهُ فيمضي قائماً على الثلاث ويرعى العشب كعادتهِ · والثعلب تنشب رجلهُ في الفخ فيقطعها بانيابهِ كأنها حبل يربطهُ بالفخ · والجرذ يجوع في المصيدة فيأكل ذنبهُ · هذا في ذوات الفقرات وهي اقرب الحيوانات الى الانسان واما الحيوانات التي لافقار لها فشعورها بالالم ليس شيئاً على ما يظهر · فالدودة تقطع منها نصفها فلا تموت بل يخرج جسمها ويطول كما كان اولاً وقد ينمو الجزء المقطوع ايضاً ويتولد لهُ راس فتصير الدودة الواحدة دودتين · والزيلاء الطويلة الارجل تمسكها بارجلها فتتركها بيدك وتظل على حالها تصيد الذباب وتنسج البيوت الى ان ينبت لها ارجل أخرى كأنها اغصان الشجر قطعت فانبتت غيرها مكانها والسرطان يخاف فيبري رجليهِ كأنها فضلة زائدة · والجرادة تدوس بطنها وهي تأكل العشب فيبقى رأسها يأكل كأنهُ لا يشعر بما حدث · والزنبور يقطع من وسطهِ ثم يدفن رأسهُ من العسل فيأكل منهُ على جاري عادتهِ · والفراش يتهافت على السراج فيحترق اجنحتهُ مرة بعد أخرى وهو لا يبالي الى ان يحترق كلهُ او يقع غير قادر على الطيران · وكيفما التفتنا نرى الادلة متوفرة على ان الحيوانات ولاسيما الدنيا منها لا تتألم مما يتألم منهُ الانسان · انتهى

الآن الدكتور ولس لم يكتفِ بنفي الالم عن الحيوانات الدنيا بل قال انها ترتاح الى ما يحسبهُ موجباً للالم الشديد فان الحيوان الذي يولد لكي يؤكل يجب ان لا يشعر بالم وهو يؤكل بل بلذة لانهُ لو شعر بالم لوقف نسلهُ اذ لا تولد فيهِ قوى طبيعية كافية لوقايتهِ فاذا شرع حيوان يأكل حيواناً آخر للحيوان المأكول يشعر بالفناء اولاً ثم يفقد شعورهُ ويعتريهِ سبات كسبات النائم وهكذا ينقضي امرهُ

وبعد ان شرح كيفية وجود الاحياء ونشوءها بعضها من بعض قال ان وجود علم الاحياء يستلزم وجود قوة مهيئة مرشدة مدبرة فيستلزم اولاً وجود قوة خالقة اوجدت المادة على اسلوب يجعل حصول هذه التنوعات فيها من الممكنات · وثانياً وجود عقل مرشد لانهُ لابدَّ من الارشاد في كل درجة من درجات النشوء · وثالثاً لا بدَّ لهذه القوة الخالقة من غاية ترمي اليها في ما خلقتهُ ودبرتهُ في هذا الكون الوسيع مدة كل العصور الجيولوجية الغابرة والحاضرة · وعندي ان هذه الغاية التي قصدتها القوة الخالقة هي الانسان خلاصة المخلوقات وبذلك يفسَّر

كثير من غرائب الخلق والنشوء. والانسان هو المخلوق الوحيد الذي يفهم شيئاً من نواميس الطبيعة ويستقصي أفعالها ويدرك قيمة القوى التي فيها ويستنتج منها وجود العقل المتسلط عليها كعلة لازمة لوجودها

وذهب في الفصول الاخيرة من كتابه الى ان الخالق ليس مضطرًّا ان يعنى بنفسه بكل مخلوقاته لكنهُ ابدع اعوانًا لهُ يعتنون بها وهم الملائكة فقد قال ان العقل المدبر الذي يدير عالم الاحياء لا يلزم ان يكون غير محدود في شيء من صفاته اي لا يلزم ان يوصف بالاوصاف التي نصف بها الله. فاذا لزمنا ان نستنتج ان ما بيننا وبين الله ليس فراغًا خاليًا من كل شيء بل هو مشتمل بمخلوقات متدرجة في ارتقائها وتصعدها على حسب الكون فقد يجعل الله بعض الملائكة العليا قادرة على ايجاد الاثير بكل القوى الكامنة فيه اللازمة لتوليد ما تولَّد منهُ ويجعل الملائكة التي تحتها درجةً قادرة على توليد العناصر المختلفة من ذلك الاثير حتى تتمكن هذه القوى المادة من جذب وحرارة وكهربائية وتكوّن منها السدم والشموس التي تتألف منها اجرام السماء. ولا يتعذَّر علينا ان نتصور ان طغمات الملائكة التي الف سنة في عينيها مثل يوم تراقب هذه الشموس والكواكب الى ان يصل جرم منها في حجمهِ وبنائهِ وما يحيط بهِ من الهواء والماء وبعده من مصدر الحرارة بحيث تصير احوالهُ الجوية والطبيعية ثابتة تبقى على حالة واحدة تقريباً ملايين من السنين ويصير صالحًا لسكن الاحياء من الاميبا اوناها الى الانسان اعلاها ويبقى ثبوتها ملايين اخرى من السنين كافية لارتقاء هذه الاحياء . . . . . ويظهر لي ان فرض وجود الملائكة وتدبيرها للموجودات بقوة خالقها اسهل تصوراً واقرب الى التصديق من الفرض ان الخالق خلق الموجودات كلها وهو نفسهُ يعتني بكل فرد منها وكل دقيقة من دقائق جسمهِ ويدبر كل امورها بنفسهِ. والفرض الاول لا ينفي اعتناء الخالق بمخلوقاتهِ ولكنهُ يجعل هذا الاعتناء بواسطة الملائكة المخلوقة حسب درجاتها ودرجاتهِ. انتهى

هذا وولس من اكبر العلماء الطبيعيين فادلتهُ على وجود الخالق وعلى اعتنائهِ بمخلوقاتهِ بواسطة ارواح خلقها لذلك مما يرتاح اليهِ العقل وتطمئن لهُ النفس. وقد كان يقول ان ناموس النشوء كافٍ لتوليد كل الاحياء ما عدا الانسان اي ان انواع الاحياء كلها من نبات وحيوان تفرعت بعضها من بعض بواسطة القوى الطبيعية وبموجب نواميس الارتقاء التي اكتشفها هو وداروين ما عدا الانسان فانهُ وُجد مباشرة اما الآن فيظهر من الملخص المشار اليهِ آنفًا انهُ حسب نواميس النشوء شاملة للانسان مع غيره من انواع الحيوان ولكنهُ جعل ادارتها كلها في يد ارواح مخلوقة لذلك